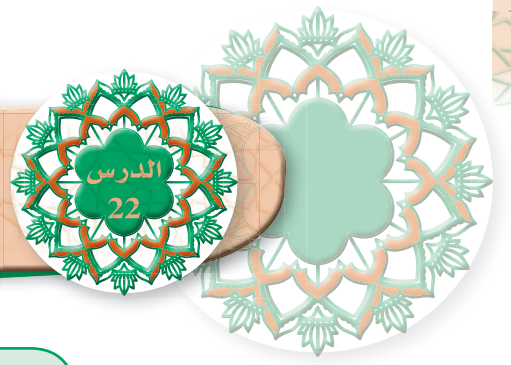


القيم والأخلاق في الفلسفة الإسلامية (الفضيلة)



أهداف الدرس

1. أن أتعرف مفهوم الفضيلة ومصادرها؛
2. أن أثبت أنواعها وطرق اكتسابها؛
3. أن أتمثل قيمة الفضيلة في سلوكي.

تمهيد

عد الإسلام الفضيلة أحد الركائز الأساسية في بنائه التشريعي والخلقي، وجعلها أساساً لبناء الفرد الصالح والمجتمع الراشد المنشود، وقد تناول علماء الأخلاق والفلاسفة المسلمون موضوع الفضيلة كأحد أهم القضايا في الدرس الفلسفي الإسلامي عموماً، وفي فلسفة الأخلاق خصوصاً. فما مفهوم الفضيلة؟ وما مصدرها؟ وما أنواعها وطرق اكتسابها؟

نص الانطلاق

1. قال ابن رشد: «فنقول: إن الجميل هو الذي يُختار من أجل نفسه، وهو ممدوح وخير، ولذيق من جهة أنه خير. وإذا كان الجميل هو هذا فبيّن أن الفضيلة جميلة لا محالة؛ لأنها خير، وهي ممدوحة، والفضيلة هي: ملكة مُقدّرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير، أو يُظن به أنه خير؛ أعني الحافظة لهذا الخير والفاعلة له، ولذلك كانت مُوجدة لكل فعل يُقصد به نحو غاية ما، جليل القدر، عظيم الشأن في حصول تلك الغاية عنه». [تلخيص الخطابة، ص72]
2. قال الإمام الفارابي: «الأشياء الإنسانية التي إذا حصلت في الأمم وفي أهل المدن، حصلت لهم بها السعادة الدنيا في الحياة الأولى، والسعادة القصوى في الحياة الأخرى؛ أربعة أجناس: الفضائل النظرية، والفضائل الفكرية، والفضائل الخلقية، والصناعات العملية».

[تحصيل السعادة، ص24]

الفهم

الشرح:

- **يُختار:** الاختيار: إرادة تتقدّمها رويةً مع تمييز.
- **السعادة الدنيا:** السعادة المعجلة.
- **استخلاص المضامين:** أستخلص من النصين مفهوم الفضيلة وأهميتها وأنواعها.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: مفهوم الفضيلة ومصدرها

1- مفهوم الفضيلة: قال مرتضى الزبيدي: «والفضيلة: خلاف النقيصة، وهي الدرجة الرفيعة في الفضل، والاسم من ذلك الفاضلة والجمع الفواضل. وفُضِّلَه على غيره تفضيلاً: مزّاه؛ أي أثبت له مزية أي خصلة تُميزه عن غيره، أو فضّله: حكم له بالتفضيل، أو صيّره كذلك» [تاج العروس 171/30]. قال الإمام الغزالي: «والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة، فإذا تشارك شيان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال: فضله، وله الفضل عليه، مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء» [إحياء علوم الدين 18/1] فالفضائل جمع فضيلة، وهي من صفات الذوات، والفواضل جمع فاضلة وهي من صفات الأفعال. فما معنى الفضيلة في الفلسفة الإسلامية؟

تناول علماء الأخلاق والفلاسفة المسلمون الفضيلة مفهوماً ومصدراً وأنواعاً وغير ذلك، تناولوا بيزر عمق العقلية الإسلامية وتفردوها، كما يبرز مركزية الأخلاق في الفلسفة الإسلامية. ينطلق ابن رشد في تأسيسه لمفهوم الفضيلة من كون -الإرادة- الاختيار الذاتي الحر هو جوهر الإنسان العاقل الفاضل؛ حيث يمتلك القدرة على التمييز بين الخيارات، ويختار بحرية وبوعي ما هو الأفضل له مما هو جميل ومناسب لذاته؛ فالفضيلة إذن تبدأ من الاختيار الذاتي للجميل، يقول ابن رشد: «إن الجميل هو الذي يُختار من أجل نفسه، وهو ممدوح وخير، ولذئذ من جهة أنه خير. وإذا كان الجميل هو هذا فبيّن أن الفضيلة جميلة لا محالة؛ لأنها خير، وهي ممدوحة». [تلخيص الخطابة، ص 72]

وبعد تأسيس ابن رشد للفضيلة يتوقف عند معناها فيقول: «والفضيلة هي: ملكة مُقدّرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير، أو يُظن به أنه خير؛ أعني الحافظة لهذا الخير والفاعلة له،

ولذلك كانت مُوجدةً لكل فعلٍ يُقصد به نحو غاية ما، جليلِ القدر، عظيم الشأن في حصول تلك الغاية عنه». [تلخيص الخطابة، ص72] وبعد بيان ابن رشد لمعنى الفضيلة في الفلسفة الإسلامية يعطي أمثلةً لأُمّهات الفضائل الفرعية المتفرعة عن هذا الجنس فيقول: «فأما أجزاء الفضيلة فالبر؛ أي العدل العام، والشجاعة، والمروءة، والعفة، وكِبَرُ الهمة، والحلم، والسخاء، واللب، والحكمة». [تلخيص الخطابة، ص72] فهذه الأجزاء متفرعة عن أمّهات الفضائل-الأخلاق-، يقول الإمام الغزالي: «فإذن أمّهات الأخلاق وأصولها أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، ونعني بالحكمة: حالةً للنفس بها يُدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية، ونعني بالعدل: حالةً للنفس وقوةً بها تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها، ونعني بالشجاعة كونَ قوة الغضب منقاداً للعقل في إقدامها وإحجامها، ونعني بالعفة تأدّب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع». [إحياء علوم الدين 3/54] فالفضيلة دافعة لكل جميل حافظة له، والمتصف بها ناصر لذوي الفضائل ماح لهم، يقول ابن رشد: «ومما يدل على أن الإنسان ذو فضيلة أن لا يفعل الأفعال التي يفتضح بها أهل الفواحش، وأن يؤدبهم بالقول والفعل، وكذا نصرة ذوي الفضائل ومحمدتهم مما يمدح به». [تلخيص الخطابة، ص75]

2- مصدر الفضيلة: إن الشرائع ضرورية للفضائل العلمية والنظرية ومصدر لها، يقول ابن رشد: «بل القوم (الفلاسفة) يظهر من أمرهم أنهم أشد الناس تعظيماً لها، وإيماناً بها. والسبب في ذلك أنهم يرون أنها تنحو نحو تدبير الناس الذي به وجود الإنسان، بما هو إنسان، وبلوغه سعادته الخاصة به. وذلك أنها ضرورية في وجود الفضائل الخلقية للإنسان، والفضائل النظرية والصنائع العملية. وذلك أنهم يرون أن الإنسان لا حياة له في هذه الدار إلا بالصنائع العملية. ولا حياة له في هذه الدار، ولا في الدار الآخرة إلا بالفضائل النظرية. وأنه ولا واحد من هذين يتم ولا يبلغ إلا بالفضائل الخلقية. وأن الفضائل الخلقية لا تتم إلا بمعرفة الله وتعظيمه بالعبادات المشروعة لهم في ملة ملة؛ مثل الصلوات والأدعية، وما يشبه ذلك من الأقاويل التي تقال في الثناء على الله تعالى وعلى الملائكة والنبيين». [تهافت التهافت ص 554-555]

المسألة الثانية: أنواع الفضيلة ووسائل اكتسابها

1- أنواع الفضيلة: تنوعت تصنيفات الفضائل، وتعددت أنواعها لدى الفلاسفة المسلمين، وقد قسمها الإمام الفارابي إلى «أربعة أجناس: الفضائل النظرية، والفضائل الفكرية، والفضائل الخلقية، والصناعات العملية». [تحصيل السعادة، ص24]؛ فالفضائل النظرية تتعلق بالمعرفة والعقل،

مثل الحكمة والعلم . . . والفضائل الفكرية تتعلق بحسن التدبير ، مثل الفطنة وحسن التقدير . والفضائل الخلقية مثل العدل ، الشجاعة ، العفة ، الكرم . . . والفضائل المدنية (العملية) ترتبط بالأفعال اليومية وتظهر في المجتمع الفاضل .

يتناول الإمام الفارابي هذه الأجناس الأربعة للفضائل بالبيان فيقول: فالفضائل النظرية هي العلوم التي الغرض الأقصى منها أن تحصل الموجودات ، والتي تحتوي عليها معقولة ، متيقنا بها فقط . وهذه العلوم منها ما يحصل للإنسان منذ أول أمره من حيث لا يشعر ولا يدري كيف ومن أين حصلت ، وهي العلوم الأولى؛ ومنها ما يحصل بتأمل وعن فحص واستنباط ، وتعليم وتعلم . والأشياء المعلومة بالعلوم الأولى هي المقدمات الأولى؛ ومنها يُصار إلى العلوم التي تحصل عن فحص واستنباط وتعليم وتعلم . [تحصيل السعادة، ص26] . ويقول-عن الفضيلة الفكرية ، والفرق بينها وبين القوة الفكرية-: « . . . فتكون الفضيلة الفكرية هي التي تستنبط ما هو أنفع في غاية ما فاضلة ، وأما القوة الفكرية التي يستنبط بها ما هو أنفع في غاية هي شر ، فليست هي فضيلة فكرية . . . والفضيلة الفكرية منها ما يقتدر به على جودة الاستنباط لما هو أنفع في غاية فاضلة مشتركة لأمم أو لامة أو لمدينة عند وارد مشترك ، فلا فرق بين أن يقال: أنفع في غاية فاضلة ، وبين أن يقال أنفع وأجمل؛ فإن الأنفع الأجمل هو بالضرورة لغاية فاضلة ، هو الأجمل في تلك الغاية ، فهذه الفضيلة الفكرية هي فضيلة فكرية مدنية وهذه المشتركة ربما كانت ما سبيلها أن تبقى وتوجد مدة طويلة» .

[تحصيل السعادة ، ص57 بتصرف]

وعن الفضيلة الخلقية ومركزيتها يقول الإمام الماوردي: «ولعمري إن صيانة النفس أصل الفضائل؛ لأن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته ، وتوكلًا على ما يلزم الناس من صيانتها ، سلّوه فضيلة علمه ، وسمّوه بقبيح تبدّله ، فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبدّل؛ لأن القبيح أنم من الجميل ، والرذيلة أشهر من الفضيلة؛ لأن الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ ، فلا ينصفون محسنا ، ولا يحابون مسيئا ، لا سيما من كان بالعلم موسوما وإليه منسوباً؛ فإن زلته لا تقال ، وهفوته لا تعذر» . [أدب الدنيا والدين ، ص 32]

وأما الكندي فقسم الفضيلة إلى قسمين ، وبين ما يندرج تحت كل قسم منهما فقال: «الفضائل الإنسانية هي الخلق الإنساني المحمود ، وهي تنقسم قسمين أولين: أحدهما في النفس ، والآخر فيما يحيط بدن الإنسان من الآثار الكائنة عن النفس . أما القسم الكائن في النفس فينقسم ثلاثة أقسام: أحدها الحكمة ، والآخر النجدة ، والآخر العفة؛ وأما الذي يحيط بذئ النفس فالآثار الكائنة عن النفس ،

والعدل فيما أحاط بذى النفس . وأما الحكمة فهي فضيلة القوة النطقية ، وهي علم الأشياء الكلية بحقائقها واستعمال ما يجب استعماله من الحقائق . وأما العفة فهي تناول الأشياء التي يجب تناولها لتربية أبدانها وحفظها بعد التمام وائتثار امتثالها والإمساك عن تناول غير ذلك» [رسائل الكندي - رسالة في حدود الأشياء ورسومها-، ص 177] .

قسم ابن رشد الفضائل إلى ذاتية وخارجة عن ذات الفاضل فقال: «وهذه الفضائل منها ما هي فضائل في ذات الفاضل فقط ، ومنها ما هي فضائل من جهة أنها تُفعل في أناس آخرين . وهذه التي تفعل في أناس آخرين تكون أعظم عند قوم منها عند آخرين . وفي حال دون حال ، مثال ذلك أن فضيلة الشجاعة آثر في وقت الحرب منها في وقت السلم ، وأما فضيلة العدل فمؤثرة في السلم والحرب جميعا . وفضيلة السخاء والمروءة عند المحاويع آثر عند غير المحاويع . وإنما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء بالأقل والأكثر؛ لأن فعل كليهما هو في المال ، لكن المروءة هي فعل أكثر من فعل السخاء . فأما البر فهو فضيلة عادلة يعطي الفاضل بها كل امرئ من الناس ما يستحق ، وذلك بقدر ما تأمر به السنة . . . وأما الشجاعة ففضيلة يكون المرء بها فعالا للأفعال الصالحة النافعة في الجهاد على حسب ما تأمر به السنة حتى يكون بفعله ذلك خادما للسنة . . . وأما العفة ففضيلة يكون بها المرء في شهوات البدن على مقدار ما تأمر به السنة والفجور ضد هذا ، وأما السخاء ففضيلة تفعل الجميل المشهور في المال والدناءة ضد هذا . وأما كبر الهمة ففضيلة يكون بها حسن الأفعال العظيمة ، وصغر النفس والندالة ضدها» . [تلخيص الخطابة، ص 72-73 بتصرف]

الفضيلة منها ما هو فطري ، ومنها ما هو مكتسب ، يقول الغزالي: «فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح؛ إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا ، فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاثة حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة» . [إحياء علوم الدين 60/3] . ويقول الإمام الفارابي: «والتعليم هو إيجاد الفضائل النظرية في الأمم والمدن ، والتأديب هو طريق إيجاد الفضائل الخلقية والصناعات العملية في الأمم . والتعليم هو بقول فقط ، والتأديب هو أن تعود الأمم والمدنيين الأفعال الكائنة عن الملكات العملية ، وبأن تنهض عزائمهم نحو فعلها ، وأن تصير تلك وأفعالها مسؤولية على نفوسهم ، ويجعلوا كالعاشقين لها» . [تحصيل السعادة، ص 71]

التقويم

1. أعرف الفضيلة وأبين مصدرها في الفلسفة الإسلامية؛
2. أبرز أقسام الفضيلة وطرق اكتسابها في الفلسفة الإسلامية.

الاستثمار

يقول الإمام الماوردي: «وقد قالت الحكماء: أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة، وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة، فإذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة، وإن افترقا فياويح مفترقين ما أضر افتراقهما، وأقبح انفرادهما». [أدب الدنيا والدين، ص 33]

أتأمل هذا النص، وأبين من خلاله علاقة الفضيلة بالسعادة ووسائل اكتسابهما.

الإعداد القبلي

أعدُّ بحثاً عن مفهوم السعادة وأنواعها ووسائل تحصيلها في الفلسفة الإسلامية.